بين العلم والسياسة

[عاد كاتب المقال من المؤتمر الإفريقي لدراسات ما قبل التاريخ الذى انعقد بمدينة نيروبى فى شهر يناير ١٩٤٧ ، بعد أن مثل فيه جامعة فاروق الأول . وهو يسجل هنا بعض انطباعات وملاحظات عابرة عن المؤتمر .]

يقال فى محافل العلماء وفى دور البحث والدراسة إن العلم ينبغى أن يطلب من أجل العلم ، و إن طلاب العلم والباحثين عن المعرفة ينبغى أن يخلصوا فيما يطلبون وفيما يبحثون ، فلا تكون لهم غاية تفسد ما يسعون إليه ، ولا غرض يهدف بهم ويوجههم فيما ينشدون . ويقال أيضاً إن العلم ينبغى أن يرتفع بأهله فوق الغايات ، وأن يتنزه بهم عن كل الأغراض ، فلا يبتغون من ورائه غير وجه الحق ووجه الله . وهو إن انتهى بالناس فى بعض الأحيان والحالات إلى غاية فانما ينتهى إلى ما يهذب النفس ويصقل العقل و يرقى بالفرد والجماعة إلى مراتب الإنسانية التى لا تعرف من الغايات والأسباب إلا ما يخرج بالناس من الضلالة إلى الهدى ومن الجهالة إلى النور . بل يقال أكثر من ذلك إن العلم الصادق ينبغى أن يكون خيراً للإنسانية كلها ، لا يسخَّر من أجل جماعة من الناس دون أخرى ، ولا ينتفع به فريق من الخلق دون فريق ؛ فالعلم شعاع من نور الله وقبس من ناره ؛ وما دام الله للخليقة جميعاً فالعلم ينبغى أن يكون وأن يبقى للناس أجمعين .

هكذا علّمنا أشياخنا فى مصر وفى غير مصر ؛ وهكذا كتب العلماء وتحدث المتحدثون عن العلم فى مختلف العصور ؛ فقالوا إن العلم لا وطن له ، و إن العالم الحق من ضاق به موطنه الصغير فاتخذ من العالم كله وطناً له ، و إن اتساع العقل ورحابة الفكر وبعد المعرفة وعمق الثقافة لا بد أن تنتهى كلها بطالب العلم إلى أن تكبر نفسه ويتسع قلبه ، فيجمع فى ذاته بين خير ما يستطيع أن يجمع

إنسان من ثقافة العقل وأدب النفس وحياة الضمير . . . ولعله أن يبلغ بذلك أرفع ما تستطيع أن ترق إليه الإنسانية ، وأقرب ما يستطيع أن يكون عليه إنسان من الله .

ومع ذلك فالذى يدرس تاريخ العلم والعلماء منذ بدأ الانسان يبنى تراثه فى العلم والمعرفة ، لا يستطيع أن يقول فى إنصاف إن العلم كان فى وقت من الأوقات خالصاً لوجه الله كما أراد له العلماء ، وهو لا يملك إلا أن ينتهى إلى أن هذا الكلام الكثير الذى ردده حملة العلم عن رسالتهم كان أدنى إلى التمنى والرجاء منه إلى الحقيقة والواقع . بل إن الذى يدرس تاريخ العلم يكاد ينتهى إلى أن ما تمناه العلماء كان فيما يبدو أبعد من أن تستطيعه نفس إنسان . وما دام حملة العلم من بنى الانسان ولا من الملائكة ، فلا سبيل إلى أن نجرد العلم من « إنسانيته » ، بكل ما تحمل هذه الكلمة الأخيرة من معنى . وإذا كان بين البشر من حقق ما هدى إليه العلماء ، أو قارب أن يفعل ذلك ، فأولئك صفوة مختارة لا تمثل أبناء العلم فى جملتهم ، أو هم فلتة من فلتات الطبيعة لا يصح أن يعتد بها فى الحكم على طبيعة العلم والعلماء .

وفوق ذلك فنحن إن رجعنا إلى تاريخ الثقافة والمعرفة وجدنا أن الإنسان قد نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ، وأنه قدم تلك الحاجات على حاجاته العقلية . ولذلك فان جانب الدين سبق جانب العلم فى تراث الانسانية الثقافى . بل إن الروح سخرت جوانب الثقافة الأخرى فى الفن واللغة والعلم ، فسعت كلها فى أغلب أعصر التاريخ لتشبع نزوع النفس إلى الروحيات . ولئن كان العلم قد سعى فى العصر الحديث لأن يستقل بنفسه عن ثقافة الروح فانه لم يجاوز حتى الآن محاولاته الأولى فى أن يقف بذاته ؛ بل هو قد تجاذبته نزعات أخرى فى الحياة الجديدة ، منها النزعة القومية التى تأبى إلا أن تسخر كل شئ من أجل حياة الأمة بين غيرها من الأمم . ومنها النزعة الدولية التى همّت بنفر قليل من العلماء ورجال الفكر إلى أن يقحموا العلم فيما لا راحة للعلم والعلماء أن يقحموا أنفسهم فيه من نظم الجماعات ونظريات الحكم وتنظيم العلاقات الدولية فى عالم يضطرب ويتطور من يوم ليوم ، أو فى القليل من جيل لجيل . بل منها النزعة العقلية ذاتها ، وقد قسمت علماء الجيل فرقاً وأشياعاً فيما ينبغى أن يهدف إليه العلم والبحث العلمى من غاية أو غايات تتصل بالمادة وتلزمها حيناً ، وتجاوزها وتمتد إلى

ما وراءها حيناً آخر . وذلك كله إن دل على شئ فعلى أن العلم يصعب جداً ، أو يستحيل فيما يظهر ، أن يأتى مجرداً أو خالصاً لذاته . وما ذلك إلا لسبب بسيط جدا وهو أن العقل البشرى لم يخلق منزهاً عن الغاية أو مجرداً من الغرض، أو حتى خالصاً لوجه الحق أو وجه الله .

وقد ينفعنا أن نذكر هذا كله وأن نتمثله واضحاً جليا عندما نعرض لحياتنا الحاضرة وبعض ما يتصل بها أو يترتب عليها من مشكلات . فالعلم فى عصرنا الحديث قد تدخل فى حياة الناس والجماعات إلى حد بعيد ؛ والحياة القومية أصبحت لا تقوم على أساس مكين إلا إذا وجهها العلم ورسمت لها الخطط العلمية . والعلم ذاته قد غدا فى خدمة المجتمع فى كل جماعة تدعى لنفسها الرقى ، بل فى الحياة الدولية بعد أن اتسمت بطابع التوجيه العلمى فى غير قليل من الأشياء . لذلك كله لم يعد العلم خالصاً ولا مستقلا عن الحياة القومية والدولية . وكلما ازدادت الحياة القومية تعقداً والحياة الدولية تشابكاً برزت صلة العلم بأسباب الحياة العملية ومصالحها النفعية فى صور وأشكال جديدة . ولعل أغرب ما تتجلى فيه تلك الصلة بعض المحافل التى يجتمع فيها نفر من العلماء ، يتذاكرون تقدم العلم والمعرفة ، ويعرضون خطواتها بين حين وحين . ففى هذه المؤتمرات يجتمع العلماء من أركان الأرض ، يمثل كل فريق منهم أمة من الأمم ، ويباهى بما لها من نصيب موفور — أو يجب أن يكون موفوراً ! — فى تقدم العلوم ، ويحاول كل منهم أن يكسب لأمته ما استطاع من علم جديد أو منفعة مترتبة على علم جديد . وبعض هذه المؤتمرات دولى عالمى يشمل أمم الأرض جميعاً ، وبعضها الآخر يقتصر على قارة بالذات ، ويدرس شؤون العلم المتصلة بها . ومن هذا النوع الأخير مؤتمر عقد أخيراً فى نيروبى عاصمة كينيا بشرق إفريقية ، ودعيت للاشتراك فيه دول القارة الافريقية وبلدانها مستقلة وغير مستقلة ، وكذلك عدد من الدول المهتمة بشؤون القارة أو بالدراسات المتصلة بها . وكان المؤتمر خاصا بعصر ما قبل التاريخ ، ونشأة الحضارات وتطورها فى القارة المظلمة قبل أن يبزغ فجر التاريخ ؛ أى إنه كان فى ظاهر الأمر بعيداً كل البعد عن أوجه النفعية التى قد تتصل بحياتنا الحاضرة . ومع ذلك فان هذا المؤتمر ، على بعد ما بيننا وبين العهد الذى انعقد من أجل دراساته ، قد مس السياسة الحاضرة مساساً تجلى فيه ما يمكن أن يكون بين السياسة والعلم من أسباب لا يضعفها بعد الشقة فى الزمان

ولا يقلل من قيمتها ارتباط العلم احياناً بالماضى السحيق من جهة ، وارتباط السياسة غالباً بالحاضر أو المستقبل من جهة أخرى . . . إذ الواقع أن ليس بين العلم أيًّا كان ميدانه وزمانه وبين السياسة فى هذا العصر الذى نعيش فيه حجاب لا تخترقه الغايات !

والذى يدرس شؤون القارة المظلمة فى الجيلين أو ثلاثة الأجيال الماضية يعرف أن ظلمة هذه القارة لم تمنع أعين العالم الأوربى من أن تتطلع إليها ، وأن تمعن فى التطلع ، علها أن تصل إلى قلب القارة المظلمة من أى طريق . وقد سبقت بريطانيا غيرها من الأمم الأوربية فتطلعت إلى إفريقية السوداء من الشمال ومن الغرب ومن الجنوب ومن الشرق ، وراح الجوّالون والمستكشفون البريطانيون من أمثال لفنجستون وستانلى وسبيك وغيرهم يرتادون القارة ويتوغلون من الساحل إلى الداخل ، يضيفون إلى العلم والمعرفة ما لم يسمع به الرجل الأبيض من قبل عن أرض يقطنها المتوحشون والبرابرة من الزنج وأنصاف الحاميين . ثم راحت الجمعيات العلمية تعنى بنتائج هذه الرحلات ، وتذيع عنها بين الناس ما حفز همة الراغبين فى الإفادة مما أتى به الرحالون من علم ومعرفة ؛ فتكونت شركات التجارة ، وتقدم أهل المشروعات ومن ورائهم الحكومة آخر الأمر — أو قل أوله — بل تقدم نفر متزايد من أهل الدين ورجاله وحملوا مشعل المدنية المسيحية إلى قلب القارة الذى لم يعرف عن الأديان السماوية إلا ما انتهى إليه من قبل عن الإسلام أو عن المسيحية الشرقية خلال بعض أطراف إفريقية البيضاء أو السمراء . وهكذا تداخلت المصالح المشتركة بين أهل الرحلة وأهل التجارة وأهل المشروعات وأهل الدين وأهل السياسة ؛ وانتظمت جهود هؤلاء وهؤلاء فاتخذت صبغة العمل الحكومى الذى استحال آخر الأمر — أو قل أوله أيضاً — إلى عمل عسكرى صحبه أو ترتب عليه قيام الاستعمار الحكومى الحديث فى صوره وأشكاله المعروفة .

وقد يعنينا فى صدد مؤتمر الدراسات الإفريقية لعصر ما قبل التاريخ أن نستشف ما قد يكون من وراء تنظيمه من سبب أو أسباب . فبريطانيا ، أو إحدى مستعمراتها الشرقية ، هى التى نظمته ودعت إليه . وليس من شك فى أن علماءها كانوا مخلصين وجادين فى الأمر حين دعوا أو تقبلوا ما هيىء لهم من دعوة المؤتمر للانعقاد والدراسة فى إحدى مستعمرات الإمبراطورية . ولكن

المؤتمر قد سبقه تفكير علمى سياسى — أو سياسى — علمى إن شئت — فقد كان من ورائه فيلسوف الإمبراطورية وقائدها الإفريقى المرشال سمطس ، وهو الذى يعرف ما للدراسات والبحوث العالية من قدر وخطر ، وما يكون لها ويترتب عليها من نفع قريب أو بعيد ، وهو فى الوقت نفسه راسم كثير من خطط الإمبراطورية السياسية ، وخير من يعرف أن روابط العلم قد لا تقل عن روابط السياسة ، وأن الخطة السياسية ينبغى أن تسبقها دراسة علمية ؛ فقد يزكى العلم والمعرفة السياسة بأكثر مما تزكيها القوة والسلطان ، وقد يكون العلم طريقاً إلى الربط بين بقاع من الأرض وأشتات من الخلق لا تقوى السياسة بمفردها على أن تربط بينها برباط مكين أو وثاق أمين ، بل قد يكشف العلم عن روابط خفية لا تراها عين السياسة بغير منظار العلم الذى كثيراً ما يخترق الحجب فى الزمان وفى المكان .

وسينفعنا هنا ولا شك أن نذكر أن الإمبراطورية البريطانية كانت تسعى فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن إلى أن تربط بين أقاصى القارة فى الجنوب والشمال . فقد تقدم مستعمروها ، وعلى رأسهم سيسيل رودس ، من جنوب القارة فى العشرة الثامنة وما بعدها من القرن التاسع عشر نحو ما عرف فيما بعد باسم روديسيا و إفريقية الشرقية ؛ وتلا ذلك تقدمهم فى العشرة التاسعة وما بعدها إلى أرض مصر ووادى النيل . ولاح فى الأفق مشروع ربط مدينة الكاب بمدينة القاهرة بطريق حديدى أو طريق آخر يربط أقصى الجنوب بأقصى الشمال ويفتح السبيل أمام أبناء الإمبراطورية فينفذون من أحد طرفى القارة إلى طرفها الآخر ، بعد أن تكالبت أمم أوربية أخرى على غير هذين الطرفين من القارة فسدت المنافذ أمام بريطانيا وقطعت عليها السبيل فى أن تنفذ من الشرق إلى الغرب ، وفى أن تتصل أملاكها بين ساحلى القارة على المحيطين الهندى والأطلسى . واستمرت الحال على ذلك حتى تحينت بريطانيا الفرصة ، وتم لها ما أرادت فى خلال الحرب العالمية الأولى ، فاتصلت أملاكها والأراضى الواقعة تحت حمايتها بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال . وكانت بريطانيا قد عنيت عناية خاصة منذ القرن الماضى بأن تكون لها السيادة على حوض النيل كله ، أو بأن يمتد سلطانها على الأقل بين مصب النيل فى البحر المتوسط ومنابعه فى الهضبة الاستوائية التى تقع على طريق الكاب والقاهرة . كذلك عنيت بريطانيا عناية خاصة بأن

تضيق الخناق على ألمانيا فى توسعها الإفريقى ، بأن تطردها وتحل محلها فى مستعمرة تنجانيقا عندما شبت الحرب العالمية الأولى . فلما تم لها ذلك زالت آخر عقبة فى سبيل اتصال أملاك الامبراطورية ومناطق نفوذها فى الشرق الافريقى. وقد يسأل القارئ ولماذا اختارت بريطانيا شرق القارة دون غربها سبيلا للاتصال بين الجنوب والشمال ؟ والجواب على ذلك عند أهل الجغرافيا وأهل السياسة ! ففى شرق القارة هناك وادى النيل وخيراته التى تحدث عنها التاريخ ؛ وهناك الهضبة الاستوائية المرتفعة حيث يطيب المناخ وتصلح المرتفعات لهجرة العناصر البيضاء واستقرارها بصفة دائمة ؛ وهناك البحر الأحمر وهو الطريق إلى البحار الدفيئة و إلى الهند ؛ ثم هناك المحيط الهندى ذاته وهو طريق الامبراطورية إلى الشرق الهندى وما وراءه حتى استراليا . وكل هذه مغريات طبيعية وغير طبيعية، يضاف إليها أن غرب القارة قد شاركت فيه دول أخرى كثيرة ، منها أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال بل أمريكا ذاتها ، فكثرت هناك أيدى الدول الأخرى ، ووجدت بريطانيا مجال التوسع فى الشرق أدنى منالا وأبعد عن المشاحنات من ميدان التكالب الدولى العنيف على شواطئ القارة الغربية .

من أجل هذا كانت عناية الامبراطورية بشرق القارة أشد من عنايتها بغربها. ومن أجل هذا حاول البريطانيون أن يعرفوا عن الشرق الافريقى مايعينهم على رسم خططهم فى استعمارة واستغلاله على أساس علمى . ومن أجل هذا أيضاً عنى قادتهم فى الفكر الاستعمارى بهذا الجانب من القارة أكبر العناية . . . وقدلانبعد كثيراً عن الحق إن استنتجنا أن هذا كان من عوامل اهتمام بريطانيا بهذا المؤتمر بالذات ؛ واختيار نيروبى وأرض كينيا فى قلب إفريقية الشرقية لتكون مقرًا لأول مؤتمر إفريقى يعقد لتنظيم الدراسات الجغرافية والأثرية القديمة وغيرها من بحوث عصر ما قبل التاريخ ، ثم دعوة المؤتمر ليعقد دورته القادمة فى جوهانسبرج باتحاد جنوب إفريقية بعد أربع سنوات . . . بل ربما كان هذا هو الدافع إلى إصرار فريق من علماء الإمبراطورية فى أن يكون تنظيم المؤتمر على نمط يغاير من بعض الوجوه ماجرى عليه العمل فى المؤتمرات الدولية العالمية ، ومحاولة فريق منهم أن يضمن للمؤتمر أن يكون رئيسه وسكرتيره العام من البريطانيين ، لولا أن انتبه فريق آخر من غير البريطانيين ، فاختير للمؤتمر رئيس فرنسى واحتفظ للدولة الداعية بالوظيفة الأخرى . . . إلى غير ذلك من تيارات ظاهرة وأخرى خفية ،

أريد بها فيما يبدو أن يتجه المؤتمر وجهة يصح بحق أن يقال فيها إنها تقع على هامش السياسة !

وهكذا اتضح منذ البداءة أن العلم والسياسة كثيراً ما تتجاوب بينهما الأصداء ولو من بعيد ؛ فتنتصر السياسة للعلم وتردد أحاديث ما ينبغى من رعاية للعلماء ، ويتغنى العلم بأنه فى خدمة المجتمع ، أو أنه فى القليل يخدم مصالح الإنسانية عن طريق خدمة المصالح القومية . . . ولكن الشئ الغريب أن السياسة فى هذا المؤتمر سعت إلى أن يكون لها شئ من التوجيه عن طريق الرعاية؛ كما أن العلم لم يقف عند الاستجابة لدواعى الخدمة القومية ، وإنما كاد ينحرف ويميل ، لولا بقية من روح العلم ، وتخوفاً من جانب العلماء أن يجرفهم التيار أو أن يميلوا كل الميل . . . . بل لولا تلك الرقابة المتبادلة التى اعتادت فرق العلماء وأحزابهم أن يفرضها بعضهم على بعض ، وأن يتلقوها جميعاً بكثير من الخوف والحذر ، أو قل من المخافة والاشفاق !

ومن الغريب أيضاً أن فريقاً من العلماء البريطانيين فى المؤتمر تعصبوا تعصباً ملحوظاً أو غير ملحوظ لإبراز قيمة شرق إفريقية فى تطور الحضارات البشرية عامة والحضارات الإفريقية خاصة ؛ فقالوا إن بلاد كينيا وتنجانيقا وبقية الهضبة الاستوائية الشرقية ربما كانت موطن الحضارات الأول ، وإنها فى ذلك يجب أن تعتبر أعرق من غيرها من مناطق إفريقية بما فى ذلك مصر أم الدنيات ! وهم قد حاولوا أن يسندوا حجتهم بمختلف الأسانيد ، وأرادوا أن ينتزعوا من هذا المؤتمر الدولى اعترافاً ضمنيا أو تسليما بأن هذه المنطقة أهم المناطق فى إفريقية بل ربما فى العالم كله ، رغم ما قد يبدو فى ظاهر هذه الدعوى من إغراق وإغراب . . . وقد بدا كأن هؤلاء العلماء والباحثين البريطانيين إنما يقصدون من وراء دعواهم هذه وجه الحق دون سواه ، وأنهم إن عملوا على إقناع بقية علماء المؤتمر بوجاهة حجتهم فلن يكون ذلك إلا إظهاراً لما لإفريقية عامة من فضل على الانسانية فى بناء تراث حضارتها الأولى قبل أن يطلع فجر التاريخ : كما أن بعض هؤلاء الباحثين البريطانيين قال إنهم إذ يرفعون صوتهم فى المؤتمر ويرجون منه تسجيل هذا الصوت لا يهدفون إلى أن يفاخروا بما كان لإفريقية من ماض مجيد — فذلك الماضى ليس ماضيهم ، كما لمح بعض العلماء الفرنسيين فى كثير من دهاء العلماء ! — وإنما هم يهدفون إلى إبراز قيمة هذه المنطقة للعالم

عامة وللعالم البريطانى خاصة ، فيزداد اهتمام الجمهور والهيئات العلمية بتشجيع البعوث الدراسية التى يصح أن تقوم بالبحث والتنقيب فى هذه المناطق الاستوائية . . . وهذه حجة ولا شك وجيهة ؛ ولكنها تنحرف بالعلم والعلماء إلى ما يجب ألا ينحرفوا إليه ؛ كما أنها كانت فى أغلب الظن تخفى وراءها وتطوى فى باطنها من أفكار السياسة وأهدافها المرسومة أكثر وأعمق كثيراً مما ينطوى عليه الغرض العلمى الظاهر . فسياسة النابهين من دعاة الإمبراطورية وبُناتها فى القرن الماضى قد هدفت كما ذكرنا إلى زيادة اهتمام أبناء الامبراطورية بشرق إفريقية عن طريق إيفاد الرحالين ، وإذاعة المعلومات وأنباء الاستكشافات الإفريقية عن طريق الجمعيات العلمية وغيرها ، مما انتهى به الأمر إلى أن سعت بريطانيا حكومة وشعباً ، أو شعباً وحكومة ، إلى أن تستعمر الشرق الافريقى ، وتوطد أقدامها فى أراضى المستعمرات فوق الهضبة الاستوائية . واليوم يشعر مفكرو الإمبراطورية وحفظة تراثها وميراثها ، وفى طليعتهم المرشال سمطس ، أن اهتمام الإمبراطورية وأبنائها بهذا الجانب من إفريقية ينبغى أن يشحذ من جديد، إذا قدر لشرق إفريقية أن يصبح نقطة ارتكاز هامة فى الامبراطورية ، ومنطقة تجمع للقوى والقوات الإمبراطورية تنفذ منها إلى الشمال أو إلى الشرق وقت الحاجة على نحو ماهو مرسوم . وليس غريباً فى هذا الصدد أن يسعى مفكرو الامبراطورية وراسمو الخطط فيها إلى أن يلفتوا نظر مواطنيهم فى أرجاء الإمبراطورية إلى ما لشرق إفريقية من قيمة وخطر عن طريق أحد المؤتمرات الدولية ؛ فالامبراطورية ووسائلها فى الدعاية والتعريف ينبغى أن تلائم الزمن؛ وما كان يصلح فى القرن الماضى من استخدام الرحالين والمستكشفين والإذاعة عن طريق الجمعيات العلمية ليس يكفى فى جيلنا الذى نعيش فيه بعد أن تم استكشاف مجاهل إفريقية السوداء بصفة عامة ، وبعد أن غدت شهادة مؤتمر دولى كهذا الذى عقد أخيراً فى نيروبى أرفع قيمة وأبعد أثراً من شهادة جمعية علمية أو عدد من الجمعيات العلمة ، مهما كان لتلك الجمعيات من سند ، ومهما ذاع لها من صيت .

ومع ذلك فقد نبه المؤتمر لخطورة هذا الجانب مما عرض عليه من بحوث . وكان على مصر وعلى أنصارها من القائمين بالدراسات المصرية والمعجبين بما سبقت به مصر وشمال إفريقية إلى بقية القارة خاصة و إلى العالم عامة من فضل

كبير فى نشأة الحضارات وتطورها . . . كان عليهم أن يقرعوا الحجة بالحجة وأن يقدحوا البرهان بالبرهان حتى برز الحق . . . أو حتى عاد إلى البروز وضاء منيراً بعد أن أزيل ما أثير حوله من غبار !

ولكن الأغرب من هذا كله أن أراد منظمو المؤتمر والداعون إليه أن يهدفوا إلى تقسيم إفريقية إلى مايمكن أن نسميه « مناطق دراسية » ، تشمل كل منها عدداً من الدول أو المستعمرات الإفريقية ، يوحد التمثيل بينها فى حفلة افتتاح المؤتمر وفى تكوين لجانه العلمية ، وتنسيق خطط الدراسة المتصلة بكل منها . ولم يبد فى هذا الاقتراح ما يثير الريبة أو المخافة فى نظر كثير من المؤتمرين ؛ ولكن الذين خبروا ماهدفت إليه بريطانيا فى العهد الأخير من تشجيع الاستجابة المتبادلة بين أهل العلم وأهل السياسة ، كان لهم العذر كل العذر فى أن يتوجسوا قليلا وأن يترددوا كثيراً قبل أن يتقبلوا هذا الاقتراح . وقد تحقق ماخشوه وما ترددوا فيه عندما عرض الاقتراح البريطانى فى صورة محدودة ، فتبين أنه يرمى إلى أن تعتبر مصر بمفردها أو بالاشتراك مع سواحل إفريقية الشمالية منطقة قائمة بذاتها ؛ ويعتبر السودان جزءاً من منطقة تمتد فى شرق إفريقية إلى روديسيا ؛ ويعتبر جنوب إفريقية وجنوبها الغربى منطقة ثالثة ؛ والكونغو ومعه إفريقية الاستوائية المنخفضة منطقة رابعة ؛ ثم السنغال وسواحل إفريقية الغربية منطقة خامسة . . . ويهمنا من هذا التقسيم المقترح — أو الذى كان مقترحاً — أنه يرمى إلى فصل مصر عن السودان ، فتمثلان فى الحفلة الرسمية لافتتاح المؤتمر تمثيلا مستقلا ، وتعتبر كل منهما داخلة ضمن منطقة دراسية مستقلة ، ويفصل بينهما فى التمثيل فى اللجان ، ويبدو كأن المشكلات العلمية والدراسية فيهما لا ترتبط ولا تتداخل ، وحتى المصطلحات العلمية وأسماء الحضارات القديمة والسابقة للتاريخ فى كل منهما تكون مستقلة عن الأخرى... ولم يكن ليهم أصحاب الاقتراح فى ذلك أن تبقى مصر منفردة أو أن ترتبط ببقية إفريقية الشمالية فى الغرب ؛ ولكن كان يهمهم بصفة خاصة أن يسجلوا فى هذا المؤتمر الدولى أن السودان متصل بشرق إفريقية فى مشكلاته الدراسية وفى تاريخ حضاراته ، وأن حوض النيل لا يمثل وحدة إقليمية ولا دراسية . وهم بالطبع لم يجاهروا بشئ من ذلك فى قول صريح ، وإنما تجاهلوا هذا الهدف المستتر ، كما تجاهلوا الدافع إليه ؛ بل تجاهلوا أن يكون إليه دافع ما غير تبسيط

إجراءات التمثيل والدراسة فى أقاليم إفريقية ومناطقها ! وهنا أيضا كان على مصر أن تقف فى المؤتمر وقفة قوية تدافع عن حقها الذى هو حق العلم من غير شك . ولم يكن عسيراً على مصر لحسن الحظ أن تؤلب معها عدداً كبيراً من العلماء وأعضاء المؤتمر من غير البريطانيين ؛ فليس هناك شك فى أن جميع الأدلة القائمة تحتم اعتبار مصر والسودان منطقة واحدة ، تتداخل فيها المشكلات والمسائل العلمية ، سواء فى ذلك منها ما يتصل بنهر النيل وتطوره الطبيعى ، وما يتصل بنشأة الحضارات وتطورها خلال أعصر التاريخ . . . ولم يكن عسيراً على مصر أن تثبت ذلك أو أن تبرز روعته فى المؤتمر من جديد ؛ فبدت وحدة الوادى فى شؤون العلم والبحث والدراسة بما لا يدع مجالا لمكابرة ؛ وأقر المؤتمر هذه الوحدة ، وتقرر آخر الأمر أن يعتبر وادى النيل فى شمال شرق إفريقية وحدة دراسية قائمة بذاتها ، لها تمثيلها الموحد فى افتتاح المؤتمر الرسمى وفى لجانه العلمية ، ولها دراساتها المتشابكة التى تبرز هذه الوحدة وتجلوها للباحثين والمتعلمين . . . أما شرق إفريقية فقد انكمشت منطقته واقتصرت على أملاك بريطانيا وحمايتها وأراضى انتدابها فى شرق القارة .

هذا طرف من حديث ذلك المؤتمر الإفريقى . وهو حديث قد لا يخلو من دلالة لمن أراد أن يستدل ، وقد لا يخلو من عبرة لمن أراد أن يعتبر . ولعل أول مايدل عليه أن ماتجرى به ألسنة العلماء من أن العلم ينبغى أن يأتى خالصاً لوجه الله ووجه الحق، إنما هو قول كغيره مما تجرى به ألسنة البشر من غير العلماء ! فطبيعة البشر ليست مما يغيره العلم ، وليس العلم مما تتغير معه طبيعة البشر . وخير لنا جميعاً أن ندرك ذلك وأن نتمثله فى أعمالنا وأقوالنا ؛ وأن نكون فى ذلك كله صرحاء مع أنفسنا وصرحاء مع الناس . ولئن كانت هذه الحقيقة قد تمثلت فى هذا المؤتمر بالذات ، فانها تتمثل ولا شك فى مؤتمرات أخرى كثيرة . . . تتمثل ظاهرة أو خفية ، سافرة أو محجبة ، وغاية ما هناك أن الأعضاء البريطانيين فى هذا المؤتمر كانوا أشد حاجة وأكثر تلهفاً من غيرهم على أن يخدم المؤتمر أغراضهم الخاصة ، وعلى أن تسعفهم هذه الخدمة فيما هم بسبيله من إعادة تنظيم لشؤون الامبراطورية فى إفريقية . وقد لا يملك المنصف إلا أن يرى المعاذير للعلماء والباحثين فى هذا العصر إن هم كانوا فى خدمة السياسة القومية ؛ فنحن

خارجون من حرب ضروس ، سخرت فيها الأمم أبناءها فى مختلف ضروب الخدمة الوطنية ، فاشتغل العلماء — والبريطانيون منهم خاصة — خلال الأعوام السبعة أو الثمانية الأخيرة فى أعمال تمتّ كلها أو جلها إلى الحرب أو السياسة بسبب قريب أو بعيد ؛ وقد اكتسبوا فى هذه الفترة عادة النظام والطاعة والتفانى فى الخدمة القومية . ولعل هذا أن يكون من ورائه ما بدا من ميل أعضاء المؤتمر البريطانيين إلى الاتجاه به ، حسب خطة مرسومة ، فى نطاق سياسة عامة لا يملك العلم والعلماء أن يحيدوا عنها أو يخرجوا عليها . وسواء أصح هذا الافتراض أم لم يصح ، فلابد أن ننتظر فترة قد تطول أو تقصر قبل أن يتخلص العلماء فى العالم كله من عصبيتهم القومية التى أكرهتهم عليها ظروف الحياة ومقتضياتها خلال هذه السنوات الأخيرة . ولكن الشئ الذى ينبغى أن نعيه تماماً وأن يتمثله القائمون على شؤون البحث والدراسة فى مصر خاصة هو أنه من الخير لنا أن نحاول الإهتمام بهذه النزعات التى تسيطر على العلم والعلماء فى غير مصر، وأن نكون على حذر مما قد تجرنا إليه تلك النزعات التى قد تأتى من جانب بريطانيا على وجه الخصوص ، ولكنها قد تأتى من جانب غيرها من الأمم . فالعلم فى هذا الزمن أصبح أقرب إلى حياة الأمم مما يبدو فى ظاهر الأمر ؛ ومحافل العلماء ومؤتمراتهم تزيد هذه الحقيقة جلاء ووضوحاً فى كل يوم . . . يستوى فى ذلك ما اتصل منها بعلوم المادة والحياة اليومية ، وما اتصل منها بفنون من المعرفة لا تمتّ إلى حياة اليوم وحضارته بسبب ظاهر . . . ومن واجب مصر وأمثالها من الأمم التى تقوم فى قلب العالم ، وتتصل لدراسة حضارتها بل حياتها الحاضرة بكثير مما يتدارسه العلماء فى هذه المحافل والمؤتمرات القارية والعالمية . . . من واجبها أن تشارك بكل ما يسعها فى هذه الدراسات ، وأن تسعى ليكون تمثيلها قويا فى هذه المحافل والمؤتمرات ، مهما بدا ذلك بعيد النفع قليل الفائدة عند من لا يتعمقون الأمور ولا ينظرون إلى بعيد . ولن يكون من الخير بالنسبة لنا أن ننطوى على أنفسنا فى هذا العصر الذى اتصلت فيه أسباب الحياة بين الأمم ، وفى هذا العالم الذى لا تنتهى فيه العزلة والانطواء ، إلا إلى ذبول وفناء .

سليمان حزين